السورة الرابعة عشرة

التكاثُر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ ﴾

هذه هي السورة الثالثة عشرة بالترتيب التراجعي لسور القرآن الكريم، وتمتاز السورة بغنىً غير عاديٍّ في المواقع الجديدة التي فاجأ بها النصّ القرآنيّ الأوائل من أهل العربيّة.

وسنرى أنّ في السورة التي يبلغ عدد كلماتها ٢٨ ما لايقلّ عن ٥٤ من هذه المواقع الجديدة، وسيتبيّن لنا بشكلٍ خاصّ مدى غنى السورة بالكلمات والتعبيرات المنفتحة، إذ يكاد هذا النوع من المواقع يغطّي مساحة السُورة بأكملها.

وممّا يميّز شخصيّة السورة أيضاً انفرادها بأربعة ألفاظٍ أو استعمالاتٍ لا تتكرّر في غيرها من السوَر: (زرتُم، المقابر، لَتَرَوُنّ، لتَرَوُنّها) وكذلك استقلالها بثمانية تراكيب وتعبيراتٍ تقتصر عليها وحدها وتكاد تغطّي السورة بأكملها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، ﴿زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾، ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ﴾.

أوّلاً: الألفاظ والمصطلحات

من المهمّ أن نذكّر دائماً بأنّنا في حديثنا عن الألفاظ القرآنيّة الجديدة لن نقتصر على تلك التي أوجدها القرآن ولم تكن موجودةً من قبل، فذلك النوع هو الأقلّ بين هذه الألفاظ.

وإنّما تشمل دراستُنا ألفاظاً عرفها العرب ولكنّ القرآن الكريم أعطاها معنىً جديداً، فأضحى كثيرٌ منها بمثابة مصطلحاتٍ بدأت قرآنيّةً خاصّةً ولكنّها ما لبثت أن دخلت قاموسنا اللغويّ اليوميّ، بحيث لم نعد قادرين، بمعايشتنا الطويلة والمستمرّة لها، على تمييزها بسهولةٍ عن الألفاظ الأخرى التي كانت تشكّل لغة العرب اليوميّة، الرسميّة والمحكيّة، قبل أن يطبعها القرآن ببصمات لغته الجديدة.

فماذا لدينا الآن من هذه الألفاظ في سورة (التكاثر)؟

١- التكاثر:

يمتاز هذا اللفظ بمعناه القرآنيّ الخاصّ، رغم أننا لا نعثر عليه، بهذا المعنى أو بغيره، عند شعراء الجاهليّة. وأوّل من نجده لديه هو الشاعر الإسلاميّ حسّان بن ثابت (ت٥٤هـ) حيث يقول:

وحَمْدانُ أحلاسُ الجيادِ لدى الوغى يمُوجون موجَ البحرِ عند التكاثُر

وواضحٌ، مع ذلك، اختلاف معناه في البيت، وهو الاجتماع، عن المعنى القرآنيّ، وهو التعداد والتفاخر وجمع المال وما يدخل تحت هذه المعاني، كما سوف نرى.

أمّا في الحديث الشريف فنادر الورود، ولم أجده إلاّ في حديثٍ واحدٍ من الواضح أنّ الرسول ﷺ قصد فيه تضمين المعنى القرآنيّ، ومع ذلك خلت معظم رواياته من هذا اللفظ، واقتصر وجوده على إحدى روايات أحمد:

- .. ما أخشى عليكم الفقر، ولكن أخشى عليكم التكاثر، وما أخشى عليكم الخطأ، ولكن أخشى عليكم العَمْد[1]

ويرِد في القرآن الكريم، في غير هذه السورة، مرةً واحدةً أخرى، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ ﴾ [الحديد: ٢٠]

والسياق الذي ورد به اللفظ في هذه الآية من شأنه أن يعيننا على فهم دلالاته في سورة (التكاثر).

٢- زرتم:

إنّه لفظٌ قرآنيٌّ جديدٌ بمعناه، وليس بلفظه: فلأوّل مرّة يأخذ في العربيّة معنى: دُفنتم. وربّما كان أقربَ استعمالات الجاهليّين إليه قولُ عنترة (ت٢٢ ق.هـ) -مع التذكير دائماً بالشكوك المحيطة بكثيرٍ من الأشعار المنسوبة إلى هذه الشخصيّة وقد تداخلت أخبارها التاريخيّة مع الأساطير-:

وكان أجلَّ الناسِ قَدْراً وقد غدا أجلَّ قتيلٍ زار أهلَ المقابرِ

فالفعل في القرآن يتعدّى إلى (المقابر) مباشرةً، وليس إلى أهل المقابر، فأخذ بذلك معنى الموت أو الدفن، وليس مجرّد الوصول أو الانضمام إلى الأموات هناك، فهو، بالمعنى الشعريّ الأخير، لا يتجاوز المعنى التقليديّ له، وهذا رغم أنّنا نرجّح -بهذا الطابع القرآنيّ الواضح في البيت- أنّه واحدٌ من الأبيات الكثيرة المنحولة لعنترة، وهو الذي استأثر بنصيبٍ من النحل لم يُصِبْه غيره من الشعراء، كما أكّدنا ونؤكّد دائماً.

(١) الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج١٣، ص٤٤٠، حديث رقم ٨٠٧٤.

ومن المهمّ، إضافةً إلى ذلك، أن نشير إلى أنّ اللفظين (زرتم) و (المقابر) لا يتكرّران في أيّ موضعٍ آخر من القرآن، فهما من خصوصيّات هذه السورة.

٣ إلى ٥- كلاّ [مكرّر ثلاث ٣ مرّات]:

هذا استعمالٌ قرآنيٌّ مختلفٌ للّفظ -كما سبق أن رأينا في سورة (الهُمزة)-.

إنه يتكرّر في القرآن ٣٣ مرة، وبصورةٍ لم يعهدها الشعر العربيّ من قبل، أو من بعد، ولم يعرفها كذلك الحديث الشريف، رغم تردّد اللفظ عدة مرّات في كلا الشعر والحديث الشريف ولكن بالاستخدام المعروف عند العرب لهذا اللفظ، أي بمعنى النفي أو تأكيد النفي، أو ردّاً لزعمٍ، أو نفياً لإثباتٍ يسبق هذا اللفظ أو يلحق به.

ولكنّ اللفظ في القرآن، وفي هذه السورة، يأتي للزجر، ولتغيير اتجاه المعنى نحو ناحيةٍ أخرى مختلفة، فكأنّه يقول: أبَلَغَ بكم الأمرُ أن تذهبوا إلى القبور لتتفاخروا بأشراف موتاكم وأعدادهم أيضاً؟ أو ربّما أراد: أهكذا تستمرّون في التفاخر والتكاثر حتى تجدوا أنفسكم وقد أصبحتم من سكّان القبور؟ إذن فتهيّأوا للآتي، وستكتشفون قريباً عبث ما كنتم تفعلون، فتواجهون مصيركم المحتوم في الدار الآخرة.

ويتأكّد هذا المعنى القرآنيّ من جديدٍ بتكرار اللفظ في السورة ثلاث مرّات كما نرى.

٦ إلى ٨- تَعلمون [مكرّر ثلاث مرّات]:

يمتاز هذا الفعل، العاديّ بلفظه، بأنّه غير عاديٍّ باستعماله: فالفعل، في المرّات الثلاث، لم يتعدّ إلى مفعولٍ به، إنّه (تعلمون) فحسب.. أو ﴿تَعۡلَمُونَ عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ فأُلحق هنا بمفعولٍ مطلقٍ يؤكّده (علمَ) ولكن من غير أن يُلحق بـ(مفعولٌ به) على الإطلاق! فماذا سيعلمون يا تُرى علم اليقين؟

لقد منحه القرآن الكريم، بحذف مفعوله، قوّةً معنويّةً جديدة، الغرض منها المبالغة في التهويل والتحذير عن طريق إخفاء ما سوف يُعلَم لهم فيما بعد.

ولا شكّ أن تكرار الفعل ثلاث مرّات في السورة، مع ربطه في كلّ مرّة بالأداة (كلاّ)، في معناها الجديد أيضاً، وكذلك الربط بين الجملتين المتكرّرتين بالأداة (ثمّ)، منح ذلك التهويل جرعةً إضافيّةً من التجديد والإثارة.

٩- ١٠- لتروُنّ/ لتروُنّها:

رغم تكرار هذا اللفظ مرّتين في السورة فإنّه لا يعود فيتكرّر في القرآن الكريم خارجها، ولا وجود له كذلك -بهذه الصيغة- في الشعر العربيّ، لا قبل الإسلام ولا بعده. إنّه إذن من خصوصيّات سورة (التكاثر) أيضاً.

وربما يذهب الظنّ إلى أنّ سبب خلوّ الشعر العربيّ من هذا اللفظ هو عدم مناسبة الأوزان الشعريّة العربيّة الستة عشر لهذا البناء اللفظيّ الذي تتتالى فيه أربع حركاتٍ (لَتَرَوُ..).

وتوالي مثلِ هذا العدد من الحركات قليلٌ في العَروض العربيّ حقّاً، ولا أكاد أعرفه إلاّ في (مُتَعِلُنْ)، ولكنّ خلوّ الحديث الشريف هو أيضاً من هذه الصيغة، على نثريّته وسعة مساحته، ينفي هذا الافتراض.

١١ - الجحيم:

جذر هذا اللفظ معروفٌ في اللغة العربيّة، والجاحم هو المكان الشديد الحرّ، ونجد اللفظ مرّتين على الأقلّ في الشعر الجاهليّ، الأولى عند عمرو بن قُميئة (ت ٨٥ ق.هـ) في بيتٍ له يصف ترحاله في الحَرّ الشديد عندما تَقِيل كلّ المخلوقات، حتى حشرات الصحراء:

وهاجـرةٍ كـأُوارِ الجحيـمِ قطعْتُ إذا الجُندُبُ الجَونُ قالا

والثانية عند عنترة بن شدّاد (ت ٢٢ ق.هـ) يتغزّل:

كلّما ذُقتُ بارداً مَن لماها خِلتُهُ في فمي كنار الجحيمِ

ومرّةً أخرى أضع تحفّظاتي على صحة نسبة البيتين لصاحبيهما، لِما في استعمال اللفظ فيهما من أثرٍ واضحٍ للمعنى الإسلاميّ له (جهنّم)، ولإغراق ابن قُميئة في الزمن قبل الإسلام، إغراقاً يضفي الشكّ على حقيقة كثيرٍ من شعر تلك الفترة وشعرائها، ثمّ لِما في صورة عنترة خاصةً (تشبيه الريق البارد بنار الجحيم) من صناعةٍ وعمقٍ لا يتوافقا مع طبيعة الصورة في الشعر الجاهليّ وفطريّتها، ومن تجاوزٍ لا ينسجم مع عفّة الغزل الذي عرفناه لعنترة ولا مع فروسيّته ونبله وكرم نفسه.

ومع ذلك فمن المؤكّد أنّ القرآن الكريم قد أعطى هذا اللفظ معنىً جديداً حين جعل منه اسماً آخر من أسماء جهنّم فأطلقه عليها ٢٦ مرّة، وهو رقمٌ مرتفعٌ بالمقارنة مع الرقم الذي ناله الاسم الأصليّ (جهنّم) في القرآن وهو ٧٧ مرة، وبالمقارنة مع الرقم المتواضع جدّاً الذي يمكن أن يكون قد تكرّر به في الشعر الجاهليّ، هذا لو صحّت في النهاية نسبة البيتين للشاعرين المذكورين.

١٢- لتُسألُنّ:

لم يعرف الشعر الجاهليّ هذا الفعلَ أو مشتقّاته بهذا المعنى القرآنيّ الجديد، وهو المحاسبة والمساءلة. ورغم تكراره مع مشتقّاته بهذا المعنى في القرآن ما لا يقلّ عن ٢٢ مرّة فلا أثر لهذا الفعل أو مشتقّاته في الشعر الجاهليّ إلاّ بمعنى السؤال الحقيقيّ الموجّه من طرفٍ إلى آخر، بعيداً عن أيّ معنىً للمساءلة أو المحاسبة، كما في قولهم:

إنْ يسألِ القومُ عنّي أهلَ معرِفةٍ فلا يُخبِّرُهمْ عن ثابتٍ لاقِ

تأبّط شرّاً (ت ٨٥ ق.هـ)

واسألْ عنِ الأظعانِ أين سَرَتْ بها آباؤها ومتى يكونُ رجوعُها

عنترة (ت ٢٢ ق.هـ)

١٣- لتُسألُنّ:

ليس المعنى الجديد في هذا الفعل هو وحده الذي يستوقفنا، بل البناء اللغويّ الجديد له أيضاً.

فأمر هذه الصيغة (لتُفْعَلُنَّ) أمرٌ غريب؛ إذ لا وجود لها بهذا البناء، ولا بهذا المعنى، في الشعر الجاهليّ أو ما بعده. وكلّ ما نجده في هذا الشعر بيتٌ واحدٌ جاء الفعل فيه مبنيّاً للمعلوم، على حين جاء الفعل القرآنيّ مبنيّاً للمجهول، كما جاء هناك مخفّف النون، وجاء في القرآن مشدّد النون، فضلاً عن أنّه جاء في الشعر بمعنى السؤال الحقيقيّ، وجاء في القرآن بمعنى المحاسبة. والبيت هو للشاعر المخضرم عامر بن الطُفَيل (ت١١هـ) ويقول فيه:

[و] لَتَسْأَلَنْ أسماءُ وهي حَفِيَّةٌ نُصَحاءَها: أطُرِدتُ أم لم أُطرَدِ

ورغم أنّ اللفظ يتكرّر ثلاث مرّاتٍ في القرآن؛ فإنّنا لا نجد له أثراً في الحديث الشريف، إلاّ في معرض الاستشهاد بهذه السورة.

وربّما وجدنا الصيغة (لتَفعَلُنَّ) هنا أو هناك في تراثنا، الشعريّ والنثريّ، ولكن بمعنى الأمر وليس الإخبار، وهو ما ينسجم مع العرف النحويّ الخاصّ بهذا البناء.

إنّ للفعلين القرآنيّين (لتَرَوُنّ) و (لتُسألُنّ) طبيعةً معنويّةً خاصّةً تجعل من الصعب أن يصدرا من بشرٍ إلى آخر، ولا سيّما أنّهما ارتبطا معاً بعنصرَيْ تأكيدٍ (اللام ونون التوكيد الثقيلة) مع خلوّهما، رغم ذلك، من معنى الأمر، وهو أغرب ما في هذين الفعلين من جديد.

١٤- يومَئذٍ:

تردّدتُ كثيراً قبل أن أُدرج هذا اللفظ في هذا الباب. فقد عرفه الشعر الجاهليّ مرّةً واحدةً لا أكثر عند شاعرٍ هو أيضاً مغرقٌ في أعماق الحِقبة الجاهليّة وهو الشنفرى (ت ٧٠هـ) وذلك في البيت الذي يُنسب إليه:

فأنتِ البعلُ يومَئذٍ فقُومي بسَوطِكِ لا أبا لكِ فاضربيني

ولكنّ هذه النسبة، شبه المعدومة، ترتفع فجأةً في القرآن الكريم لنجد اللفظ يتكرّر فيه ٧٠ مرةً، منها مرّتان بإضافة (يوم) إلى ما قبلها، وجرِّها تبِعاً لذلك ﴿ مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ ﴾ [المعارج: ١١] ممّا لم يعرفه أيضاً الشعرُ الجاهليّ.

إنّ هذه الكثافة غير العاديّة تضطرّنا، شئنا أم أبينا، إلى تصنيفه بين الألفاظ القرآنيّة، حتى إنّ ورود هذا اللفظ في أيّة جملةٍ عاديّة يجعلنا نتوقّف لنتساءل قبل أن نتجاوزها: ما علاقة هذه الجملة بالقرآن؟

وما يزيدنا قناعةً بذلك أنّ استعمال الشعراء لهذا اللفظ، في فترة ما بعد نزول الوحي حتى نهاية العصر الأمويّ، لم يتجاوز ٤ مرّات، وكأنّما هو لفظٌ مطبوعٌ بالطابع القرآنيّ فلا يكاد يجري على لسان أحدٍ أو قلمه، وذلك برغم كثرة وروده في الحديث الشريف.

١٥- النعيم:

يرد هذا اللفظ مرّتين فحسب في الشعر الجاهليّ، ولكن الرقم يرتفع في الفترة الإسلامية ليتردّد ٤٧ مرةً على الأقلّ حتى نهاية العصر الأمويّ، وهذا من غير شكٍّ بتأثير الاستعمال القرآنيّ الجديد. إنّه يتكرّر في القرآن الكريم ١٧ مرة، كلّها في وصف الجنّة، وكأنّه اسمٌ آخر لها، إلاّ في هذه السورة، حيث أُطلق، كما نرى، على نعيم الدنيا دون الآخرة، فهو إذن خصوصيّةٌ أخرى من خصوصيّات السورة.

ومن الواضح أن التركيز القرآنيّ بشكلٍ عامٍّ على استعمال هذا اللفظ، بحيث ترك أثره بعد ذلك في الشعر العربيّ بمثل هذه الكثافة، ثمّ منْحَ القرآنِ له في هذه السورة خصوصيّةً جديدة بعدم وصفه أو تخصيصه بنعيمٍ محدّد، خلافاً لاستعمال الشعراء الجاهليّين ومن بعدهم، هو ما يجعلنا نصنّفه بينَ الألفاظ القرآنيّة الجديدة.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

سندرس تحت هذا العنوان، كما اعتدنا، أيّ تركيبٍ جديد، أو صيغةٍ لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّةٍ جديدةٍ استحدثها القرآن الكريم في هذه السورة، مخالفاً بها التقاليد الأسلوبيّة العربيّة التي سبقت عصر الوحي والتنزيل. وقد استطعنا أن نحصي منها في هذه السورة اثنتي عشرة حالة:

١- حتى زرتم المقابر:

الجديد في هذا الاستعمال القرآنيّ، لو ذهبنا إلى أنّ معنى الآية: تفاخرتم حتى متّم ودُفنتم، أنّ الفعل جاء في صيغة الماضي (زرتم) وهو يعني المستقبل (ستزورون)، لأنّ المخاطَبين لم يموتوا بعد، وإلاّ لَما خاطبهم. لقد أطلق الماضي لغاية التأكيد والحتميّة، فكأنّه يقول لهم: إنّكم في حكم الأموات حتى إن لم تموتوا بعد، وهو من أكثر الأساليب البيانيّة شيوعاً في القرآن الكريم.

أمّا إن كان المقصود بالآية الزيارة الحقيقيّة للمقابر بقصد تَفاخرِ كلّ قبيلةٍ بأمواتها -كما تذهب بعض التفاسير- فلا شاهد لنا حينئذٍ في هذا التعبير، ولكنّنا نثبته هنا، لأنّننا لا نستطيع نفي الاحتمال الأول.

٢- زرتمُ المقابر:

في تعبير القرآن عن الموت بزيارة القبور، كما سبق أن أوضحنا، صورةٌ بيانيّةٌ جديدةٌ على الشعر العربيّ، فلم يقل: زرتم أهل المقابر، كما في البيت الذي يُنسب إلى عنترة، بل المقابر نفسها، فالزيارة هنا كنايةٌ عن الموت نفسه.

٣- ٤- ٥- كلاّ سوف/ ثمّ كلاّ/ كلاّ لو:

إنّ مجيء (كلاّ) في هذه الأشكال الثلاثة الجديدة يُدخِل في العربيّة تراكيب جديدةً لم تكن تعرفها من قبل. ففي ﴿كَلَّا سَوْفَ﴾ زجرٌ وتحذيرٌ من العواقب، مع جمعٍ غير متوقَّع بين هاتين الأداتين (كلاّ) و (سوف). وفي ربطها بحرف

العطف (ثمّ) بعد ذلك ﴿ ثُمَّ كَلَّا ﴾ إضافةٌ لعنصرٍ جديدٍ من التخويف والمبالغة في التحذير، مع جمعٍ غير متوقَّع أيضاً بين الأداتين (ثمّ) و (كلاّ). وأخيراً نجد في إلحاق (كلاّ) بأداة الشرط (لو)، في الحالة الأخيرة، جمعاً آخر غير متوقّع بين اللفظين، وتمهيداً لمزيدٍ من التوضيح ووضع الناس أمام الحقائق التي من شأنها أن تُذهلهم لو كُشفت لهم وأتيح لأبصارهم أن تراها.

٦- لو تعلمون:

يصرّ معظم المفسّرين، إن لم يكن كلّهم، على أنّ جواب الشرط (لو) محذوفٌ هنا، وأنّ قوله تعالى ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾ ليس جواباً لهذا الشرط، كما سوف نرى بعد قليل، فإذا كان الأمر كذلك، ونحن نخالفهم في هذا، فهو حذفٌ غير عاديٍّ لجواب الشرط.

وحذف جواب الشرط، على أيّة حال، هو أحد أهمّ الأساليب القرآنيّة على الإطلاق، وهذا ما جعلني أسمح لنفسي بإدراج هذا الموقع هنا رغم مخالفته، في رأيي، للحالات القرآنيّة العاديّة الأخرى التي يُحذف فيها جواب الشرط، وما أكثرها، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ﴾ [التوبة: ١١٨]
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٦]
- ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴾ [يس: ٤٥-٤٦]
- ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [الزُمر: ٧٣]

ويذهب كثيرٌ من النحويين إلى أن الفعل (لترَوُنّ) لا يمكن أن يكون جواباً للشرط (لو)، وإنّما هو جوابٌ لقَسَم مضمَر، والتقدير: أُقسمُ لتَرَوُنّ. وحُجّتهم في هذا أن الأصل في جواب (لو) أن يكون منفيّاً، أي لا يمكن أن يقع أو يتحقق، فالأداة (لو) -كما تعلّمنا- حرف امتناعٍ لامتناع، أو، بتعبيرٍ أكثر وضوحاً: حرف امتناعِ وقوع شيءٍ لامتناع وقوع غيره، على حين أن دخول الكافرين النار ورؤيتَهم لها، بل رؤية المؤمنين لها أيضاً، ليس أمراً ممتنعاً وإنّما هو أمرٌ محقّقٌ وحتميّ، ولهذا يمتنع أن يكون الفعل (ترَوُنّ) جواباً للشرط.

نقول مثلاً: لو تعلم ما قاله عنك لغضبتَ منه، فإذن: لأنه لم يعلم بمقولته فلن يغضب منه، فامتنع وقوع غضبِه عليه لامتناع وقوع علمِه بما قال.

وأنا أرى أنّ من المهمّ الانتباه إلى الفارق الكبير بين الحالتين. إنّ رؤية الجحيم في السورة ليس هو الرؤية في الآخرة، إنّها دعوةٌ منه تعالى إلى التبصّر واستحضار صورة الجحيم عن طريق الاعتبار والتخيّل في الدنيا، قبل أن يروها رأي العين في الآخرة، فرؤيتها في الآخرة هي الأمر المحقّق، أمّا رؤيتهم لها في الدنيا فأمرٌ لا يقع ولن يتحقّق أبداً.

لقد سبق أن وعدتكم ألاّ أتحوّل بهذا البحث إلى كتابٍ في النحو، وأن أحافظ عليه قريباً من متناول أفهام الجميع، ولكنّني الآن أمام نقطةٍ شديدة الأهميّة، وأنا متأكّدٌ من أنّكم ستستمتعون بها معي في النهاية لو اعتصمتم بقليلٍ من الصبر وحُسنِ التمعّن في تفاصيلها، فما النحو إلاّ كلعبةٍ ذكيّةٍ نستمتع بممارستها وتحتاج منّا إلى القليل من الصبر والترقّب للوصول إلى كثيرٍ من المتعة والدهشة.

لاحظوا أننا قلنا في مثالنا: لو تعلمُ لغضبْتَ، هكذا مضارعاً فماضياً، وهذا ما جرى عليه التقليد النحويّ في جواب (لو)، أي أن يأتي جوابها ماضياً لا مضارعاً -هذا إذا كان الجواب جملةً فعليّة، فقد يكون أحياناً جملةً اسميّةً- ولا سيّما إذا ارتبط هذا الجواب باللام (التي نسمّيها عادةً اللام الرابطة لجواب الشرط)، كقول شاعر الحماسة:

لو كنتُ مِن مازنٍ لم تَستَبِحْ إبِلي بنو اللقيطةِ مِن ذُهلِ بنِ شَيبانِ

لاحظوا أنّ الفعل المضارع (تستبح) هو هنا بمعنى الماضي، طبعاً، لدخول (لم) النافية عليه.

ولكنه في الآية، وخلافاً لكلّ الأعراف النحويّة، يأتي مضارعاً رغم ارتباطه باللام، وهذا سببٌ آخر يدفع بالنحويين إلى إخراجه من دائرة الشرط، فعدّوه جواباً لقَسَم محذوف، أي قدّروه هكذا: أُقسِمُ لتَرَوُنّ، فأخرجوه بذلك من دائرة الإعجاز اللغويّ القرآنيّ، وحجبوا عنّا، من ثَمّ، ما في هذا الأسلوب الجديد من فرادةٍ وخصوصيّةٍ اقتصرت على القرآن وحده.

وفي القرآن الكريم العديد من الأمثلة على حذف جواب الشرط، وربّما جواب غير الشرط أيضاً، وكذلك على إحلال المضارع محلّ الماضي في هذا الجواب، كقوله تعالى، وقد جاء جواب الظرف (لمّا) -أو متعَلَّقُه- مضارعاً بمعنى الماضي:

- ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ [هود: ٧٤]

أي: جادلَنا في قوم لوط.

ومن الواضح أن النحويّين، بافتراضهم وجود جواب شرطٍ مقدّرٍ للأداة (لو)، ثم افتراضهم مرةً أخرى وجود قسَم مقدّرٍ جعلوا جوابَه (لترَوُنّ)، حاولوا أن يُرضوا أعرافهم النحوية، وينزّهوا القرآن، كما يرون، عن الخروج على هذه الأعراف، فاضطرّوا إلى تقديرِ أو افتراضِ لفظين غير موجودين في الآية للخروج من هذا الإشكال، رغم اعترافهم دائماً بأنّ من الأفضل عدم اللجوء إلى التقدير إذا استقام الأمر بغيره.

ولكنّه، في الحقيقة، الشرف والتميّز والإعجاز المدهش للقرآن الكريم أن يخرج على تلك الأعراف من غير أن يُخلّ بالقواعد الأساسيّة للعربيّة، التي لو

خرج عنها لانتهى إلى لغةٍ أخرى لا علاقة لها بالعربيّة، وإنما هو إخصابٌ وإثراءٌ لهذه اللغة، وفتح أبوابٍ جديدةٍ أمامها للتطوّر والغنى والإبداع لم نحسن، للأسف، اكتشافها أو الاعتراف بها في القرآن، من أجل استثمارها في تطوير لغتنا وإغنائها، وهو هدفٌ أساسيٌّ من أهداف هذا البحث.

٧- ٨- علمَ اليقين/ عينَ اليقين:

هذان تعبيران لا نجدهما في غير القرآن الكريم، ولا في غير هذه السورة، ولا وجود لهما في الحديث الشريف، إلاّ أن يأتيا في سياق الحديث عن هذه السورة.

أمّا ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ فهو، كما يقول المفسّرون، علم القلب والعقل، وليس الرؤية البصرية، فيتبصّر ذو البصيرة النار وهو في الدنيا قبل انتقاله إلى الدار الآخرة -وهذا يؤيّد ما ذهبنا إليه في تفسير الشرط-. وأمّا ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ فهو الرؤية العينيّة يومَ القيامة حين يعاين الكفُّار النار ويذوقونها، أو حين يراها المؤمنون كذلك بأعينهم ويتحقّقون من فظاعتها وهولها ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١] كما أخبر القرآن الكريم.

٩- لتَرَوُنّ الجحيم:

مرةً أخرى لو وضعنا هذه الجملة الصغيرة المكوّنة من كلمتين بين مئات الجمل الصغيرة الأخرى لاستطعنا تمييز قرآنيّتها:

- بفرادة لفظيها، كما أثبتنا.
- بصيغة (لتَفْعَلُنّ) المؤكّدة باللام والنون معاً، والموجّهة إلى الجماعة وليس إلى المفرد، والتي تدلّ على الإخبار وليس الإنشاء (أو الأمر).

وهي، بغضّ النظر عن هذه الخصوصيّة الهامّة، صيغةٌ نادرة الاستعمال في لغتنا العاديّة، حتّى في معناها الإنشائيّ العاديّ، وكذلك في لغة الحديث الشريف، ولكنّها تتردّد كثيراً في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى:

- ﴿ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤]

- ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩]

١٠- ١١- ثم لتَرَوُنّها/ ثمّ لتُسألُنّ:

إنّ مجيء حرف العطف (ثمّ) قبل جملةٍ تأكيديّةٍ، كهاتين الجملتين، ابتدأ فعلاهما باللام المؤكِّدة وانتهيا بالنون المؤكّدةِ، أمرٌ غير عاديٍّ وغير مسبوقٍ في اللغة العربيّة، لا مع هذين الفعلين ولا مع غيرهما، فضلاً عمّا تمنحه لهما الأداة (ثُمّ) من قوّةٍ تأكيديّةٍ إضافيّةٍ سبق أن أحسسناها في أكثر من آية، ولا سيّما عندما يتكرّر بعدها اللفظ أو التعبير نفسُه الذي جاء قبلها، كما هو هنا، وكما في قوله تعالى:

- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: ٤ - ٥]

- ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥﴾ [القيامة: ٣٤ - ٣٥]

ولا شكّ أنّنا عندما نقول محتجّين ومؤكِّدين: كلاّ ثم كلاّ، فإننا نفعل هذا متأثّرين بالأسلوب القرآنيّ الذي انفرد بهذا التعبير، ثم انطبعت به بعد ذلك ذاكرتنا اللغويّة اليوميّة.

١٢- النعيم:

يُسأل الإنسان أو يُحاسَب عادةً عن "فعلٍ" ما، هل فَعَله أم لم يفعله، أمّا هنا فالسؤال هو عن (النعيم) نفسه وهو ليس فعلاً أو حدَثاً، وإذن لا بدّ من فعلٍ أو ما هو بمعنى الفعل نقدّره قبل هذا اللفظ، فيكون المعنى آنئذٍ أنّه سيُسأل: هل شَكَر اللهَ لِما أعطاه من النعيم، أو: هل أحسن استخدام هذا النعيم، أو: كيف حصل على هذا النعيم، وهذا يجعل من التعبير، مرةً أخرى، تعبيراً بيانيّاً جديداً وخاصّاً بالقرآن وحده.

ثالثاً: السبائك اللغويّة

حين نزل القرآن الكريم كانت السبائك الجديدة ثورةً حقيقيّةً في نسيج اللغة العربيّة أدهشت العرب، من غير أن يَعُوا تماماً ماذا يحدث، بل وجدوا أنفسهم عاجزين حتّى عن تقليد هذه السبائك وإحلالها محلّ سبائكهم التقليديّة القديمة، ولهذا ندر أن نجد في لغتنا، حتّى اليوم، آثار السبائك القرآنيّة الجديدة، إلاّ أن يكون تضميناً لها يشير بوضوحٍ إلى أصله القرآنيّ. فقد ظلّ معظمها، إن لم نقل كلّها، ممتنعاً على التقليد الحقيقيّ الذي يُذيبها في لغتنا بحيث لا نعود قادرين على التمييز بين السبيكة القرآنيّة وسبيكتنا البشريّة.

وهكذا اقتصر التأثير القرآنيّ في لغتنا غالباً على جانبٍ بسيطٍ من الألفاظ، والتراكيب، والتعبيرات، والعبارات السائرة أو (جوامع الكَلِم)، إضافةً إلى بعض التأثير للغته المنفتحة في الشعر العربيّ خاصّةً، وإن ظلّت صفة "الانفتاح"، كما عرّفناه في الجزء الأوّل من هذا البحث، خاصّةً بالقرآن الكريم وحده، ثمّ ببعض الأحاديث الشريفة.

ويبقى للسبائك القرآنيّة، مع كلّ تحليلاتنا ومحاولاتنا لوضع أصابعنا عليها، نكهتُها السماوية المميَّزة التي يعجز أيّ إنسانٍ عن تقليدها أو الوقوف على الأسرار البعيدة الغور لكيميائيّتها وتركيبها.

وما عملُنا الآن إلاّ محاولةٌ متواضعةٌ لكشف ما يمكن أن يكتشفه العقل البشريّ القاصر من أسرار هذه الكيمياء اللغويّة الإلهيّة المُحيِّرة.

وسنقف فيما يلي عند هذه السبائك الثماني، وهي تشمل في الحقيقة كلّ أجزاء السورة:

١- ألهاكمُ التكاثرُ. حتى زرتمُ المقابر:

لقد اجتمع في ألفاظ هاتين الآيتين وعلاقاتهما اللغويّة من عناصر التفرّد، التي درسناها في الألفاظ والعلاقات اللغويّة، ما يكفي ليجعل من العبارة التي تكوّنت منهما سبيكةً قرآنيّةً متميّزة.

ومن الواضح أنّ (حتّى) في مركز هذه السبيكة تشكّل محوراً أساساً لها، لأنها تربط، في معنىً واحدٍ على الأقلّ من معانيها المتعدّدة، بين المقدّمة: الانشغال بالتكاثر، والنتيجة: الموت والحساب، فتعطي هذه العبارة، ببنائها المميّز، والمتناظر، شكلَها القرآنيّ الخاصّ.

ولعلّ أقرب السبائك القرآنيّة إليها، في بنائها التشكيليّ العامّ دون البناء اللغويّ التفصيليّ الذي يستقلّ كلّياً بشخصيّته عن غيره، قوله تعالى:

- ﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴾ [المعارج: ٤٢]

٢- ٣- كلاّ سوف تعلمون [مكرّر]:

إنّها من دون شكّ سبيكةٌ شديدة التميّز، بما اجتمع فيها من عناصر النفي جنباً إلى جنبٍ مع عناصر التأكيد في وقتٍ واحد.

إنّ افتتاح الآية بأداة النفي، أو الزجر، يوحي بأننا على وشك سماع المزيد من هذا النفي، ولكنّ أداة الاستقبال (سوف) تأتي بعدها مباشرةً لتفاجئنا بمعنى التأكيد والإصرار الذي تضمّنته، وبما يشكّل مفارقةً غير مألوفةٍ بين مطلع الجملة ونهايتها، ممّا يعطيها نكهةً قرآنيّةً عالية المذاق تمكّننا من اكتشاف قرآنيّتها حتى لو اختلطت بآلاف الجمل البشرية.

٤- كلاّ سوف تَعلَمون. ثمّ كلاّ سوف تَعلَمون:

العنصر الإضافيّ الجديد الذي يميّز هذه السبيكة عن سابقتها هو عنصر التكرار في بنائها العامّ. ويتمفصل هذا البناء عند الأداة (ثمّ) التي يلتقي عندها جناحا السبيكة المتكرّران.

وأقرب السبائك القرآنيّة إليها قوله تعالى:

- ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥﴾ [النبأ: ٤ – ٥]

ومرّةً أخرى، من السهل، حتى على من كانت لديه ثقافةٌ قرآنيّةٌ متواضعة، أن يميّز هذه السبيكة القرآنية بين آلاف العبارات البشريّة الأخرى، حتّى إن حملت تلك العباراتُ المعنى القرآنيَّ نفسَه.

٥- كلاّ لو تَعلَمون علمَ اليقين:

سواءٌ قبلنا بمذهب من قال إن أداة الشرط (لو) جاءت هنا بلا جواب شرطٍ ظاهر، أو قلنا إنّ الجواب سيأتي في (لترونّ)، فإنّ الآية لها خصائص السبيكة القرآنيّة المتفرّدة، بما فيها من علاقاتٍ لغويّةٍ مميّزة.

فأداة الزجر (كلاّ) التي تبدأ بها الآية، هي بجلاءٍ بدايةٌ غير تقليديّةٍ للجملة العربيّة. ثم يتلوها الشرط مباشرةً، وهو أيضاً وضعٌ لغويٌّ غير تقليديّ. ثم تأتي جملة فعل الشرط المكوَّنة من فعلٍ ومصدرٍ مشتقٍّ من هذا الفعل (تَعْلَمُونَ عِلْمَ)، وأخيراً تأتي الإضافة غير العاديّة حين أُلحق بهذا المصدر (عِلم) مصدرٌ في شبه معناه (اليقين)، ليكوّنا معاً تركيباً لغويّاً غير تقليديٍّ أيضاً (عِلْمَ ٱلْيَقِينِ).

٦- لَتَرَوُنَّ الجحيم:

إنّها سبيكةٌ أيضاً؛ رغم أنّنا سبق أن أدرجناها في الحديث عن الصيغ والعلاقات اللغويّة بوصفها تعبيراً قرآنيّاً، ولكنّ توفّر مقوّمات الجملة الكاملة فيها، وتعدّد عناصر هذه الجملة: (اللام الرابطة، الفعل، واو الفاعل، نون التوكيد، المفعول به) وما فيها من مقوّماتٍ لغويّةٍ خاصّةٍ سبق أن فصّلناها، يؤهّلها لأن تُدرَج أيضاً بين السبائك رغم أنّها تتألّف من لفظين لا أكثر.

٧- ثمّ لتَرَوُنّها عينَ اليقين:

وهذه الآية يتوفّر فيها أيضاً ما توفّر في الآية السابقة من عناصر لغويّةٍ خاصّةٍ بالقرآن، كما رأينا، بالإضافة إلى العنصر الجديد الآخر المتمثّل بافتتاحها بحرف العطف التأكيديّ (ثمّ)، وكذلك التركيب اللغويّ الفريد وغير التقليديّ للمفعول المطلق الذي انتهت به ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾.

٨- ثمّ لتُسأَلُنّ يومَئذٍ عن النعيم:

وها هي الصيغة القرآنيّة (لَتَفعَلُنّ) تطبع من جديدٍ هذه الآية بطابعها، مبدوءةً أيضاً بأداة العطف التوكيديّة القرآنيّة (ثمّ).

ولا شكّ أنّ كثافة ورود اللفظ (يومَئذٍ) في القرآن الكريم -٦٨ مرة كما رأينا- إضافةً إلى مرّتين يأتي فيهما مجروراً بالإضافة (يومِئذٍ)، وكذلك كثافة استعمال اللفظ (نعيم) فيه أيضاً، يمنح السبيكة مزيداً من الخصوصيّة والقرآنيّة.

رابعاً: مواقع منفتحة

هذا الجزء من الدراسة يضعنا أمام المعاني العديدة التي اقترحها المفسّرون لعددٍ من الألفاظ والتعبيرات في السورة.

وبقدر ما تزداد هذه المعاني يزداد اللفظ أو التعبير اقتراباً من الحدود التي وضعناها لتعريف المواقع المنفتحة، واستحقاقاً لأن يكون ضمن الدائرة اللغويّة التي تمنحها مرونتُها وهلاميّتها قوّة الاستمرار والعطاء على مرّ العصور وامتداد المسافات وتنوّع المفاهيم والثقافات.

وسنتوقّف في هذا الجانب اللغويّ الهامّ من سورة (التكاثر) عند الألفاظ والعبارات الآتية:

١- أَلْهاكُم:

اعتادت العرب أن ترفق هذا الفعل بحرف الجر (عن) لإظهار ما وقع الإلهاءُ عنه. يقول امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ):

.... فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ

فإذا لم يُرفَق الفعل بهذه الأداة فقد عُني به مجرّد الالتهاء بالأشياء، وليس الالتهاء عن الأشياء، كما في قول عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ):

وأنـتَ امـرؤٌ ألهـاكَ دَنٌّ وقَينـةٌ فتصبحُ مخموراً وتُمسي كذلكَ

ورغم أن اللفظ في الآية اتّجه إلى (الالتهاء عن)، فإنّ الأداة (عن) غير موجودةٍ بعده، ممّا يجعل منه فعلاً مفتوحاً لاحتمالاتٍ عديدةٍ من المعاني التي يمكن أن يتعدّى إليها: ألهاكم التكاثر عن الآخرة، وعن التفكير بالثواب والعقاب، والجنة والنار، وربّما عن الصلاة والعبادات وذكر الله وعمل الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيرها..

ولو ظهرت (عن) وظهر ما بعدها، بطبيعة الحال، لانغلق الفعل ولم يبق أمام خيالنا أيُّ خيارٍ لاقتراح المزيد من المعاني والاحتمالات.

٢- التكاثر:

مرةً أخرى يأتي هذا اللفظ مفتوحاً لعدّة احتمالات في أنواع التكاثر، ولو أضيف إلى لفظٍ ما يحدّده لحُصر معناه فيما أضيف إليه.

أمّا وقد تجرّد من الإضافة فبإمكاننا الذهاب به الآن مذاهب كثيرة: التكاثر والتفاخر في الأموال، الأولاد، الأحساب، القبائل والعشائر، الرجال والأبطال، المعاش والتجارة، الرفاهية والتنعّم، إلخ..

وقد تعدّدت الآراء، نتيجةً لبقاء هذا اللفظ مفتوحاً، حتى في مناسبة نزول السورة:

فمِن قائلٍ إنها نزلت في اليهود حين قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلانٍ أكثر من بني فلان، حتى ماتوا ضُلّالاً،

وقيل: نزلت في فخِذٍ من الأنصار، أو ربّما في حيّين من قريش تعادّوا وتكاثروا بأشرافهم في الجاهلية والإسلام، فغلب بنو عبدِ مُنافٍ الحيّ الآخر (بني سَهْم)، فتكاثروا بالأموات فكَثَرَتْهم سَهْمٌ، فخاطبهم تعالى في السورة: ألم تكتفوا بالتكاثر بأحيائكم فزرتم المقابر مفتخرين بأمواتكم أيضاً؟

وقيل: ظلّوا يتفاخرون، وكلَّ يومٍ يموت منهم من يموت، حتى صاروا كلّهم من أهل القبور.

وجاء في الحديث الشريف:

- ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ قال: يقول ابن آدم: مالي مالي، وإنّما مالُك ما أكلتَ فأفنيت، أو لبستَ فأبليت، أو تصدَّقت فأمضيت[1]

وهكذا نجد أنّ قَطْعها عن الإضافة منَحها خصباً وأبعاداً في المعاني والتأويلات، وتقديراتٍ لمناسبة النزول ما كانت لتنالها لو أضيفت إلى كلمةٍ أخرى أو وُصِفت بوصفٍ بعدها.

ومن المهمّ الربط هنا بين اللفظين (ألهاكم) و (التكاثر)، لأنّ اجتماع لفظين مفتوحين في جملةٍ واحدةٍ من شأنه أن يضاعف أبعاد اللفظين معاً، والفرق بين حساب أبعاد كلّ لفظٍ منهما على حدة، وحساب أبعادهما مجتمعين، كالفرق بين قيمة كلّ من العددين (٢) و(٤) منفردين وقيمتهما معاً مجتمعين، أي (٤٢) أو على الأقلّ (٤×٢)! ألاحظتم الفرق؟

٣ - زُرتُم:

يتضح من حديثنا عن الأبعاد المعنوية للّفظين السابقين تعدّد الآراء في معنى الزيارة هنا أيضاً:

---

(١) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٦، ص٢٣٨، حديث رقم ٣٦١٣.

أهي زيارةٌ حقيقيّةٌ للقبور وهم أحياء، ليتفاخروا هناك بموتاهم؟

أم هي موتهم الذي انتهوا إليه بعد كلّ هذا التكاثر والتفاخر؟

أم هي الإقامة المؤقّتة لمن مات منهم ودفن في هذه القبور، لأنّه فيها كالضيف أوالزائر، إذ لن يلبث أن يُبعث ويعود إلى مسكنه الدائم الذي أُعِدّ له في الجنّة أو النار؟

أم هي كلّ ذلك معاً؟

أم غير ذلك أيضاً؟

أرأينا إلى اجتماع ثلاث كلماتٍ متوالية، كلٌّ منها ذات أبعادٍ متعدّدة، كم يمنح الجملة من الأطياف والألوان والاحتمالات؟

حتّى الأداة (حتّى) التي فصلت بين كلمتين من هذه الثلاث، اكتسبت، في خضمّ هذا الغنى والتعدّد، أكثر من معنىً.

فقد تكون بمعنى (إلى درجة) أي ألهاكم الحديث عن التكاثر إلى درجةٍ جعلتكم تزورون المقابر وتتفاخرون بموتاكم هناك.

أو بمعنى (لغاية) أي: ألهاكم التكاثر لغاية انتهاء حياتكم ووصولكم إلى المقابر ودفنِكم فيها.

٤- ٥- ٦- كلاّ [مكرّر ثلاث مرّات]:

إنّ جدّة استعمال هذا اللفظ، وتطويرَ القرآن الكريم لمعناه، واستخدامَه له في سياقاتٍ مختلفة، يمنحه قوّة اللفظ المنفتح.

وقد ذهبوا في تفسيره إلى أنّه الزجر هنا، أو النفيُ لما يأملونه في التفاخر، أو أنّه يحمل معنى (ألا) الاستفتاحيّة، أو معنى (حقّاً)، أو ما ذهبنا إليه من دورٍ لهذه الأداة يشبه دور إشارة المرور لأنّها تحوّل وجهة الكلام نحو سياقٍ جديد.

وكلّ هذه المعاني ملائمٌ لسياق السورة في المواضع الثلاثة التي ورد فيها هذا اللفظ، مع احتمال اختلافاتٍ طفيفةٍ في معنى كلٍّ منها تبعاً لاختلاف سياقها، ولاختلاف تفسيرات الألفاظ قبلها أو بعدها، وكذلك تبعاً لما سبقها أو تلاها من أدوات.

٧- ٨- تَعلَمون [مكرّر]:

إنّ حذف مفعول هذا الفعل، في المرّتين، تركَنا أمام احتمالاتٍ عديدةٍ لما سوف يعلمونه وما سوف نعلمه نحن جميعاً بني البشر.

يضاف إلى ذلك أن الفعلين تجرّدا من ذكر المخاطَب، أو المخاطبِين، ممّا أسهم في إضفاء المزيد من الغنى والاحتمالات في معاني كلا الفعلين.

من أجل ذلك نذهب في تفسير ما سيعلمونه، أو سنعلمه جميعاً، مذاهب شتّى:

إنّهم سيعلمون قريباً نتيجة هذا التفاخر، أو يعلمون مآل هذا الذي يتفاخرون به من متاعٍ وأموالٍ وأولاد، أو يعلمون النهاية ويذوقون الموت الذي ينتظرهم وينتظر كلاً منّا على المنعطَف، أو يعاينون الحساب الشديد، أو النار وعذاب الجحيم، أو..

وهكذا ينطلق الخيال مع تصوّراته العديدة لهذا الذي تنذرنا الآية باقتراب علمنا له.

ولا شكّ أن تكرار الفعل مرّتين مع أداة الاستقبال (سوف) تركنا أيضاً أمام احتمالاتٍ عدةٍ لمعنى هذا التكرار:

أهو لمجرّد التأكيد وتشديد الوعيد؟

أم أن مفعول الفعل الأوّل ليس هو نفسه بالضرورة مفعولَ الفعل الثاني؟

لقد ذهب المفسّرون في هذا مذاهب شتّى:

قالوا: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ

﴿تَعْلَمُونَ﴾ في الآخرة إذا حلّ بكم العذاب. فالأولى في القبر، والثانية في الآخرة،

وقالوا: الأولى: إذا نزل بكم الموت وجاءتكم الرسل لتنزِع أرواحَكم، والثانية: إذا دخلتم قبورَكم وجاءكم مُنكَرٌ ونَكير،

وقالوا: الأولى أنّكم مبعوثون عند النشور، والثانية أنّكم معذَّبون يوم القيامة،

وقالوا: الأولى للكفّار، والثانية للمؤمنين،

وقالوا: هو مجرّد التأكيد والتغليظ..

ورُوي عن عليٍّ ﷺ: "ما زلنا نشكّ في عذاب القبر حتّى نزلت (ألهاكمُ التكاثرُ)".[1]

٩ – علمَ اليقين:

لقد انعكس اختلاف المفسّرين حول معاني الآيات الأربع الأولى من هذه السورة على معنى هذه الآية أيضا.

فما علمُ اليقين هنا؟

قد يكون الموتَ، لأنّ "الناس نيامٌ فإذا ماتوا انتبهوا".[2] فالإنسان بعد الموت يرى من الحقائق ما كان عاجزاً عن رؤيته وهو حيّ،

وقد يكون البعثَ، حين يصحو البشر من رقدتهم ليجدوا أنفسهم وجهاً لوجهٍ أمام يوم الحساب،

---

(١) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين. **إثبات عذاب القبر**، تحقيق: شرف محمود القضاة، عمان: دار الفرقان، ط.٢، ١٤٠٥هـ، ص١٣٢.

(٢) العجلوني، إسماعيل بن محمد الجراحي. **كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس**، بيروت: دار الكتب العلمية، ط. ٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص، ٣١٢، حديث رقم ٢٧٩٥.

وقد يكون يومَ تطايُر الصحف حين يعرف كلٌّ مصيرَه، في الجنّة أو في النار،

وقد يكون العِلمُ هنا بصيرةَ الإنسان في الدنيا لما ينتظره في الآخرة، حتى قبل أن يموت، كما رأينا، فيكون ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ على هذا استحضارَ صورة الآخرة وهم أحياء ومعرفتَها بالعلم من غير أن يروها، بمقابل ﴿عَيۡنَ ٱلۡيَقِينِ﴾ الذي يعني معاينة هذه الأمور يوم القيامة ورؤيتَها رأي العين.

١٠- الجحيم:

رغم معرفة العرب للفظ (الجحيم) قبل الإسلام، كما رأينا، فإنّ اللفظ الآن يشير إلى عالمٍ أخرويٍّ كاملٍ يحوي من أنواع العذاب وأشكال العقاب ما لا يتصوّره إنسانٌ وما لا يخطر على قلب بشر.

ومن السهل أن نتبيّن قيمة الأبعاد المتعدّدة لهذا اللفظ لو أحللنا محلّه لفظ (النار).

إنّ النار هي النار، أمّا الجحيم فيجمع بين النار والزمهرير، والعذاب المادّي والعذاب المعنويّ، والدرك الأسفل وما يسبقه من درجات، وكذلك كلّ ما ذُكر، أو ما يمكن أن يُتخيَّل، من أوصاف جهنّم في القرآن الكريم أو الحديث الشريف.

١١- عين اليقين:

شأن هذا التعبير شأن التعبير السابق ﴿عِلۡمَ ٱلۡيَقِينِ﴾ في اختلاف المفسّرين حول المقصود به.

وكأنّ في إضافة (عين) هنا إلى (اليقين) توجيهاً لدُفّة المعنى نحو اتّجاهٍ آخر، وهو الرؤية الحقيقيّة في الآخرة، عندما يقف الناس وجهاً لوجهٍ أمام مصائرهم وحسابهم، وجنّتهم أو نارهم.

١٢- ثم لتُسألُنّ يومئذٍ:

السؤال هنا ذو أوجهٍ متعدّدة: من سيَسأل؟ ومن سيُسأل؟ وعمّ سيُسأل؟ وكيف يُسأل؟ وماذا بعد السؤال؟ وماذا بعد الجواب؟

هذه الأسئلة كلّها تَطرح نفسها تلقائيّاً علينا ونحن نقرأ هذه الآية، فتثير في أذهاننا ما تثيره من حيرةٍ وحذرٍ وترقّبٍ وخوف.

إنّ السورة توجّهت إلى قومٍ معيّنين، وفي ظرفٍ معيّن، ومكانٍ محدّد، ولكنّ اللغة التي أُنزِلت فيها نقلتْها من الخاصّ إلى العامّ، ومن المحدود إلى المطلق، فجعلت كلاًّ منّا يستشعر الموقف حين يقرأها، وكأنّها أُنزلت الآن، ومن أجله، فينفتح أمامه عالمٌ لا نهاية له من التصوّرات للأحداث الغيبيّة.

١٣- النعيم:

أمّا النعيم فيحمل من المعاني في الآية كلَّ ما أنعم الله به على الإنسان من نِعم.

وقد ذكر المفسّرون من هذه النعم التي يُستدلّ عليها من السورة: الأمن والصحّة والوقت والإدراك بالحواسّ، كما تنصّ الآية ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] وملاذّ الأكل والشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخَلْق، ولذّة النوم، والجاه، واللباس، والإسلام، والقرآن، ومحمّد ﷺ كما يؤكّد القرآن الكريم ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وتخفيف الشرائع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحجّ: ٧٨]. ويزيد هذه المعاني وضوحاً عددٌ كبيرٌ من الأحاديث الشريفة التي وردت في تعريف (النعيم) منها:

- عن أبي هريرة ﷺ قال: لمّا نزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسولَ الله، عن أيّ النعيم نُسأل، فإنّما هما

الأسودان [أي لا نملك إلاّ التمر والماء] والعدوُّ حاضرٌ، وسيوفُنا على عواتقنا؟ قال: **إنّ ذلك سيكون**[1].

- وعن أبي هريرة ﷺ قال رسول الله ﷺ: إنَّ أوّل ما يُسألُ عنه العبدُ يومَ القيامةِ من النعيم أن يقالَ له: ألَمْ نُصِحَّ لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟[2].

خامساً: جوامع الكَلِم

لعلّ معظم عبارات هذه السورة لم يحتلّ مكانه بعد في قاموسنا اللغويّ اليوميّ، ومع ذلك سنرى أنّ أكثر هذه العبارات يحمل مقوّمات التعبير السائر الذي يمكن أن يَختصر في كلماتٍ قليلةٍ مواقفَ حياتيّةً كاملةً نحاول التعبير عنها عادةً بلغتنا البشريّة المترسّلة:

١- ألهاكم التكاثر:

هذه العبارة تلخّص في كلمتين درساً كاملاً يمكن أن يلقيه أحدنا على من شغلتهم الحياة الدنيا عن الآخرة، وقد نسُوا الموت والحساب والجنّة والنار.

٢- ألهاكمُ التكاثر. حتى زرتمُ المقابر:

وفي اجتماع الآيتين في هذا التعبير يجتمع إلى الموقف الأول، وهو الانشغالِ بأمور الدنيا، موقفٌ إضافيٌّ آخر، فنردّد في أنفسنا هذه العبارة ونحن نشيّع بأنظارنا جنازة امرئٍ أهمّته الدنيا فجمع منها ما جمع، ثم ترك كلّ ذلك ومضى إلى نهايته المحتومة.

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٤٨، حديث رقم ٣٣٥٧.

(٢) المرجع السابق، ج٥، ص٤٤٨، حديث رقم ٣٣٥٨. وجاء الفعل (نرويك) هكذا بالياء، وكأنّ الجملة مستأنفة.

operkan.com

٣- كلاّ سوف تعلمون:

عندما تحاول أن تقنع أناساً بأنهم على خطأ، فيركبون رؤوسهم، ويصرّون على أنهم هم المصيبون رغم وضوح الخطأ لكلّ ذي بصيرة، فأبلغُ ردٍّ تَختصر به رأيك فيهم، ويأسك من إصلاحهم، وتأكُّدَك من ظهور الحقيقة في النهاية، قولُك لهم: كلاّ سوف تعلمون.

٤- ٥- علمَ اليقين/ عينَ اليقين:

هاتان العبارتان تختصران موقفين، كلٌّ في كلمتين:

الأوّل: تأكُّدُنا من وقوع أمرٍ من غير أن نراه بأعيننا (علم اليقين).

والثاني: تأكُّدُنا من وقوعه بعد رؤيتنا له بأعيننا (عينَ اليقين).

فلو حدث أن أخبرَنا أحدُهم بخبرٍ خطيرٍ ما زلنا في شكٍّ من وقوعه، فأبلغُ طريقةٍ وأقصرها للتأكّد من مدى اطّلاعه على الأمر بنفسه هي أن نسأله: أكان هذا علمَ اليقين؟ أم عين اليقين؟

٦- ثمّ لَتُسألُنّ يومَئذٍ عن النعيم:

وهي عبارةٌ يَحسُن بالإنسان أن يردّدها كلّما وجد نفسه في بحبوحةٍ من الرغد والسعادة، أو أحسّ بأن الدنيا قد أقبلت عليه، ففي ترديده لها ما يزجر شيطانَ نفسه إذا حاول أن يجرّ قدميه إلى الدنيا، وفيه ما يذكّره بالآخرة وما أعدّ لها من عمل.

- يروي مسلم عن أبي هريرة قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلةٍ فإذا هو بأبي بكرٍ وعمر، فقال: ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟ قالا: الجوع يا رسول الله. قال: وأنا، والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما، قوموا، فقاموا معه، فأتى رجلاً من الأنصار فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: أين

فلان؟ قالت: ذهب يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاريّ فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه ثم قال: الحمد لله ما أحدٌ اليوم أكرمُ أضيافاً منّي. قال: فانطلق فجاءهم بعِذقٍ [أي عنقودٍ كاملٍ من التمر] فيه بُسرٌ وتمرٌ ورُطَب، فقال: كُلوا من هذه، وأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: إيّاك والحلوب، فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العِذق وشربوا، فلما أن شبعوا وروُوا قال رسول الله ﷺ لأبي بكرٍ وعمر: والذي نفسي بيده لتُسألُنّ عن هذا النعيم يوم القيامة، أَخرجَكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم تَرجعوا حتى أصابكم هذا النعيم[1].

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٣، ص١٦٠٩، حديث رقم ٢٠٣٨.

obeikan.com